الحالة الحاضرة بل يتجاوزها ، فالحواس والعقل تكشف بعض جوانب الحقيقة فقط . ورغم ان الاسلوب العملي التجريبي سيد في حقله ، فانه يفشل في فهم العلاقة الديناميكية بين الاشياء . وهو يفتقد الامر الاساسي الذي تركز عليه الطريقة الجدلية : العلاقات المتداخلة بين الظواهر ووحدة الحقيقة وتعدد وجوهها . ويتخذ التفكير الجدلي منطلقه من الافتراض التالي : « الحقيقة هي الكل » . ويصبح ممكنا ، من وجهة النظر هذه ، أن نفهم كيف ينتج النصر عن الهزيمة . وتكون التناقضات هنا الارضية التي ينطلق منها التغيير النوعي . وتصبح جملة فويرباخ « نقيض النقيض فقط هو التأكيد الصحيح » واضحة . وبناء على هذه الاعتبارات المحددة يصبح التفكير الجدلي تفكيرا ثوريا له مرجعه الملائم وطريقته او اسلوبه الخاص وادوات تحليله الخاصة .

وفي النظرة الجدلية يجري تفضيل مصلحة الانسان والمجتمع « التاريخية » اي الحقيقية على المصلحة « الفورية » اي الآنية . ويفهم الحاضر ، في هذه النظرة ، ليس فقط من خلال الحقائق او المعلومات الزمانية والمكانية المتوفرة حاليا ، بل من خلال المحتوى الواسع للتاريخ العالمي . وهكذا فان الطريقة الجدلية في التحليل بالضرورة تفترض ، كما قال هربرت ماركوس(١١)، طابع الشمولية وتتخذ من حركة التحرير العالمية مرجعا اساسيا لها .

بهذا المعنى، الطريقة الجدلية هي طريقة اليسار ، من المتحررين الى اقصى الراديكاليين. وتوجه الطريقة الجدلية هو نحو التغيير الجذري ، وبذلك تصبح مهمتها الرئيسية انتقاد الوضع القائم وتخطيه (وتحويله تحويلا تاما) . ويعتبر التحديث ، من وجهة نظر التحليل الجدلي ، كتكتيك للاستعمار يهدف الى احتواء التغيير الجذري وتدعيم الوضع القائم محليا وعالميا . وهكذا فان التحليل الجدلي يركز على ضرورة مجابهة الاستعمار وجها لوجه ،.وعلى حتمية الكفاح المسلح . ويبدو واضحا انه في الصراع العقائدي الدائر حاليا ليس لدى اليقينية التجريبية ما تقدمه سوى تكتيكات للمحافظة على المصالح القائمة بينما تقدم الطريقة الجدلية نظرية سياسية تنير الرؤيا والعمل .

تعارض القوى الاستعمارية ، على المستوى العقائدي ، المطلب الثوري في تجاوز الوضع القائم، وتصف المشروع الثوري بانه خيالي وغير عملي ومثالي.وترفض هذه المؤسسة، على المستوى العملي ، شرعية التغيير الثوري وتحارب العمل الثوري . ومن وجهة نظر النظام القائم ليس هناك اي شيء يتصف بالشرعية اكثر من الشيء الموجود،**الامر الواقع**. فاسرائيل مثلا غير مهتمة في **كيفية** قيام المجتمع الاسرائيلي أو السيادة الاسرائيلية (بالاغتصاب) ، وهما أمران لم يكن لهما وجود منذ خمسة وعشرين عاما ، بل هي تهتم بالقوة الموجودة التي تضفي على هذه الحقائق صفة الشرعية . ومن وجهة نظر الولايات المتحدة المسألة الهامة ، اي العملية ، هي ليس كيف دخلت الولايات المتحدة فيتنام ، بل « الحقوق » التي تكتسبها الولايات المتحدة بوجودها في فيتنام . في كلا الحالتين الحقيقة القائمة تبدأ وتنتهي بالوضع القائم ، للحق شرعية فقط الى المدى الذي يدعم فيه ميزان القوى السائد والى المدى الذي يدعمه ذلك الميزان .

ان الانظمة ، البنى القائمة ، مغروسة في نظام من المصالح الراسخة التي تتعارض بطبيعتها مع كل دعوة ثورية . وبما ان النظام القائم يرفض المنطق الثوري فهو قادر على الرد على الدفع الثوري بطريقتين : اما ان يقمعه او يتعايش معه . والعامل الرئيسي الذي يحدد الطريقة التي سيتبعها النظام هو التيار الذي سيسير فيه التطور الثوري . وطالما بقيت الحركات الثورية ضمن الحدود التي يرسمها او يسمح بها النظام القائم ، يظل التعايش ممكنا . في تلك الظروف تبقى التناقضات الاساسية مخفية ومكبوتة. وينتج عن ذلك سياسات تسوية . لكن حال ما تأخذ الحركات الثورية اشكالا اكبر واحدث ، يقوم النظام بوضع سياسة جديدة هدفها القمع والتدمير . وعلى قوى النظام القائم في النهاية ان تعيد بناء سيطرة النظام وهيمنته على الاوضاع . وكذلك على الدفع الثوري